

## ذكريات عن آدم حنين

السفير حمدي عزام

طالعت بشغف واهتمام مجلة «وجهات نظر» التي نجحت في تبوؤ مكان متميز لدى القارئ والمثقف العربي وملأت فراغاً طالما عاني منه بافتقاده للمعالجات العميقة المتروية في خضم وزحمة الأخبار وردود الفعل الإعلامية اليومية التي تصاعدت وتعدت نتيجة التطورات السريعة والأخطار المحيطة بمنطقتنا العربية وأدت خدمة جيدة في طرحها لمضامين كتب ودراسات أجنبية وعربية في مرحلة تستوجب الانفتاح علي العالم ومتابعة اتجاهات مفكريه التي تؤثر وتتأثر بمجريات الأمور في بلادنا. وكان لإبراهيم المعلم رئيس اتحاد الناشرين العرب دور يستحق التنويه في صدور هذه المجلة وتخفيف الاعتماد الكلي للمثقف العربي علي المجالات الأجنبية استكماله بجهد طيب لإنجاح التواجد العربي بمعرض الكتاب الدولي بفرانكفورت والانفتاح علي سوق النشر العالمية وتشجيع الترجمة والنشر. ولقد أتاحت المجلة الفرصة لكبار المفكرين العرب لطرح أفكارهم ورؤيتهم استناداً إلي كتبهم ودراساتهم وفتحت أبواب «نون» لسلامة أحمد سلامة و«قراءة» لأيمن الصياد المجال لمناقشات سياسية واجتماعية أكثر شمولاً وعمقاً وزادها ثراء الاهتمام بكتب ومقالات تعرف بالمبدعين العرب المعاصرين في مجال الفن والثقافة كان من بينها التعريف بالفنان المبدع آدم حنين من خلال كتاب أصدرته «دار الشروق» عنه أثار في نفسي موجة من الذكريات تتعلق ببداية تكوينه الفني وانطلاقه نحو العالمية التي استحقها بجدارة، إذ سمحت لي ظروف دراستي للقانون الدولي بجامعة ميونخ ورئاسة اتحاد الطلاب العرب بألمانيا بالتعرف علي الفنان الذي وصل إلي عاصمة الفن والثقافة الألمانية «ميونخ» في نهاية الخمسينيات في بعثة لاستكمال مشواره الفني بدراسة في أكاديمية الفنون الجميلة بها وتذكرته شاباً هادئاً دمثاً تعلق وجهه ابتسامة، ألقاه أحياناً في مطعم الجامعة لتأكل سويًا الوجبة الطلابية الألمانية التقليدية المكونة من البطاطس والسلطة والشوربة ونسعد بإضافة قطعة دجاج إليها أيام الثلاثاء وشريحة سمك يوم الجمعة ونعاني من قلة الخبز وماء الشرب الذي تعودنا علي مساندته للوجبات في مصر، وكان يحضر معنا أحياناً اجتماعات اتحاد الطلبة العرب لنناقش مساندة الثورة الجزائرية ودعم كفاح الشعب الفلسطيني وكان حديثه دائماً من منطلق إنساني يتألم لما يلاقه البشر من ظلم وقهر وآلام في ظل الاستعمار ويعتز بجذوره وارتباطه بحضارة وتاريخ بلاده وبنجاح وأعمال الفنان والنحات المصري القديم التي اعتبرها تعبيراً عن إنسانيته بعد أن وصل مجتمعه إلي قمة الحضارة. وازداد إعجابي واهتمامي به عندما علمت أن أكاديمية الفنون الألمانية كاستثناء وخلقاً للمعتاد قد خصصت مرسماً خاصاً للفنان المصري ضمن قاعاتها تقديراً لأعماله وطلبت أن أزوره في منزله لتنهئته علي هذا التكريم المشرف للطلبة العرب فقابل طلبي بتردد وحرص وإن لم يستطع بدمائته رد طلبي وتوجهت في اليوم التالي مع زميل من رئاسة اتحاد الطلبة إلي مقر إقامته في حي الفنانين بمدينة ميونخ المسمى «شفايبنج» لنصل إلي منزل تقليدي قديم يقيم فناننا الموهوب في غرفة طلابية علي السطح لم نستطع دخولها لصغر حجمها الذي لا يضم سوي سرير ودولاب وطاولة صغيرة ولا يستطيع أحد الولوج إليها إلا بالقفز فوق السرير أولاً وهو المكان الذي يرتدي أو يخلع فيه الفنان ملابسه عند ذهابه أو عودته من الرسم وضحكنا واكتفينا بشرب الشاي في قهوة طلابية بأسفل المنزل. وفوجئت بعد شهر قليلة بمقال مطول في صحيفة «سود دويتشه تسايتونج» أهم صحف الولاية عن لمعروضات متميزة Hofgarten معرض للفنان المصري آدم حنين في واحد من أهم دور العرض بالحديقة الملكية من النحت مشكلة من الطين وتذكر بشكل قوي بالخطوط الأساسية للنحت والتماثيل الفرعونية الخالدة وشاهدنا المعرض المكون من تماثيل صغيرة نسبياً من الطين أو الصلصال لا تعكس زخارف وبهرجة وألواناً صاخبة ولا تكوينات من مدارس الفن الحديث التكعيبية أو السريالية، بل وحدات متكاملة لاصقة بالأرض في ثبات لافت للنظر وانطلاق للتكوين في شموخ معبر يذكر فعلاً بكتل النحت الفرعونية المتماسكة لتطرح فكرة واحدة جذرية مبسطة

هي الإنسان والتصاقه بالأرض والطين الذي خلق منها. قد لا يعلم الكثيرون أن آدم حنين لم يكن اسمه الحقيقي المسجل في شهادة ميلاده، بل هو اسم اختاره الفنان في فترة نضوجه الفني واختياره هذا الاسم لنفسه هو في حد ذاته دلالة علي فلسفته وفكره ونتاجه الفني الذي انعكس في جل أعماله فاختياره لاسم آدم (أبو البشر) مفهوم فلسفي وجودي يعني أنه لا قيمة لأي اختلافات عرقية أو لغوية أو مادية أو في الشكل والمظهر بين البشر فكلهم آدم وصفتهم الأساسية هي الإنسانية فاختر اسم الأول ليعلن أنه مجرد إنسان وواحد من البشر. واختياره لاسم «حنين» كالاسم الثاني له أيضًا دلالة فلسفية وجودية بمعنى اعتقاده أن الصفة الإنسانية الأساسية هي الحنان بمعناه الواسع الذي يشمل الحب والسلام وقبول الآخر والإخاء. وكل ما تعارض مع ذلك فهو مخالف للطبيعة الإنسانية التي خلق عليها البشر. ولا شك أن هذه النظرة والفلسفة كانت ذات تأثير قوي في نتاجه في النحت والتصوير معبرة عن إنسانية مطلقة يترجمها خياله وحسه المرهف إلي أعمال فنية لا تربط بالزمن والاختلافات بين البشر. ولم يكن من المستغرب علي آدم حنين بعد النجاحات المتتالية لمعارضه في ألمانيا وفرنسا وإيطاليا وتقدير النقاد لإبداعاته وعالمية فنه أن يعود إلي القاهرة ليعيش في منزل بناه من الطين في منطقة الحرائية المطلة علي أهرامات الجيزة وسقارة كسليل وامتداد أجداده الفراعنة وفنانهم ونحاتهم من أبناء الفلاح المصري الذي طالما ارتبط بالأرض وطينها الذي خلقه منه الإله وعاش من خيراته وانتهي إليه مشواره بعد انتهاء دوره في الحياة. ولفت نظري اهتمام آدم حنين والجداريات المصرية القديمة وروايته أنه بدأ حياته الفنية في مرحلة الطفولة بتشكيل تمثال من الصلصال لأخناتون بعد زيارة مدرسية للمتحف المصري، اختار الطفل الموهوب أخناتون من بين المئات من تماثيل الآلهة والفراعنة بالمعرض.. الفرعون الذي قضي حياته في البحث عن أصل الوجود وحقيقة الكون وجوهر الإنسان حتي انتهى إلي فكرة التوحيد وتميز عصره في مجال الفن والنحت والتصوير بثورية رفعت القيود عن الفنان المصري لينطلق في واقعية وتجريد يعكس الجوهر الإنساني بعد أن كان مقيّدًا بمعايير تطالبه بأن يعكس الكمال والسلطة والجمال في تصويره لتماثيل الفراعنة والآلهة، وهو ما نشاهده في الجداريات والتماثيل بالمتاحف التي تصور إخناتون مع زوجته وأبنائه وفي عباداته بشكل واقعي وإنساني، وما نلمسه في نشيد إخناتون الذي يتناول مظاهر الخلق والمفعم بالحب والحنان. لقد درس آدم حنين وتمكن من تقنيات النحت والتصوير واستوعب مدارسها الحديثة واستفاد من ذلك دون أن يؤثر أو يغير ذلك من نظرتة الأساسية لفنه كتعبير عن ثبات الصفة الإنسانية كأولوية لاحقة بالأرض واعتبر فنه امتدادًا للفنان المصري القديم الذي مازالت أعماله تبهر العالم بلا مناس. فتحية إلي فناننا الإنسان الكبير الذي يستحق في بلده ووطنه كل تقدير واعتزاز بعد اعتراف العالم الخارجي بعبقريته وقدراته ومكانته الفنية وقيل كل شيء إنسانيته المبدعة والخلاقة